﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥﴾ [يس: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربـــطُ عـــدمِ النَّجاة من قدَرِ اللـه وعـذابِـه، بـالإعـراضِ عن التَّذكير بالتَّقوى ونبذِها

لـمّا كان هذا الحال معلومًا للمُشركين لا يُنازَعون فيه بوجهٍ، بل إذا وقعوا في الضّيق واقتَربوا منَ الغرَقِ أخلَصوا الدُّعاء وأمروا به وخلَعوا الأندادَ، وكان علمُ ذلك موجبًا لصاحبِه أن لا يغفلَ عن القادرِ عليه وقتًا ما، بل لا يفتُرُ عن شُكره خوفًا من مَكره، وكان العاقلُ إذا ذُكِّرَ بأمرٍ فعلمَه يقينًا كان جديرًا بأن يقبلَه، فإذا لم يقبَلْه وخوِّفَ عاقبتَه بأمرٍ محتمَلٍ جدَّ في الاحترازِ منه، عَجِبَ منهم في إعراضِهم عنه سُبحانَه مع قيامِ الأدلَّةِ القاطعةِ على وحدانيَّتِه وأنَّه قادرٌ على ما يُريدُ من عذابٍ وثوابٍ، وإقبالِهم على ما لا ينفَعُهم بوجهٍ، قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾الآيةَ[1].

وأيضًا لـمّا عدَّدَ اللّه تعالى الآياتِ بقولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [يس: 33]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾ [يس: 37]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، وكانتِ الآياتُ تُفيدُ اليقينَ وتوجِبُ القَطعَ بما قال تعالى، لكنَّها لـم تُفِدْهم اليقينَ كان على الأقلِّ أن يحترِزوا عن العذابِ؛ فإنَّ مَن أُخبِرَ بوقوعِ عذابٍ يتَّقيه، وإن لـم يقطعْ بصدقِ قولِ المخبِرِ احتياطًا فبيَّنَ اللّه تعالى أنَّه إذا ذكرَ لهم الدَّليل القاطعَ لا يعترفون به، وإذا قيلَ لهم اتَّقوا لا يتَّقون، فهم في غايةِ الجهلِ ونهايةِ الغفلةِ، لا مثلَ العلماءِ الَّذينَ يتَّبعونَ البُرهانَ، ولا مثلَ العامَّة الذينَ يبنونَ الأمرَ على الأحوطِ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 136.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 286.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وإذا قيلَ لهؤلاء المُكذِّبين بما نزَّلَ اللهُ منَ الآياتِ: احذَروا ما تقدَّم قبلكم من نقَمِ اللهِ في الأُممِ الماضيةِ بكُفرِهم، أن يحُلَّ مثلُه بكم، واحذَروا ما أنتم لاقوه من عذابِ اللهِ تعالى إن هلَكتُم على كُفرِكُم وتكذيبِكُم، لعلَّكم تنالونَ بذلك رحمةَ رَبِّكم[1].

الإعـراضُ عن التَّذكيرِ بالتَّقوى وتـوقِّـي سـوءَ المـصـيرِ خَـيبـةٌ وهلاكٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ في الآية:

جاءتِ الآيةُ على طريق الوصلِ بالواو لاشتراكِ الجملتَين في الخبريَّةِ والجهة الجامعةِ، وبيانُ الاشتراكِ في الجهة الجامعةِ هو أنَّه لمّا أخبرَ في الآياتِ السّابقةِ عن عدَمِ انتفاعِ المُشركين بالآياتِ الآفاقيَّةِ الدّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى مع مُشاهدتِهم لها ممّا يُفيدُ إعراضَهم عنها عطفَ عليها عدَمَ انتفاعِهم بالآياتِ القوليَّة المُبلَّغةِ إليهم في القرآنِ منَ الموعظةِ مُعرضينَ عنها، فلم ينتَفِعوا بالنَّظرِ ولا بالقولِ[2].

الـكـافـرون جـاهـلـون؛ لعدمِ انتفاعِهم بالآياتِ القوليَّةِ والكونيَّةِ

فائدةُ التَّعبيرِ بـ(إذا) الشَّرطيَّةِ:

عبَّر بأداةِ الشَّرطِ (إذا) لِما تُؤذِنُ به الأداةُ بالجزمِ في وقوعِ الشَّرطِ، وهو القولُ للمُشركين ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾؛ لأنَّ لفظ (إذا) موضوعٌ للدَّلالة على الوقوع، فضلًا عن أنَّ التَّعبير بـ(إذا) مُشعِرٌ بالحثِّ على امتثالِهم للتَّقوى والرَّغبةِ في تحصيلِها.

الـحـثُّ عـلى الامتثالِ للتَّقوى والـرَّغـبـةِ في تحصيلِها

نكتةُ مجيءِ فعلِ الشَّرطِ بصيغةِ الماضي:

لمّا أفادَتْ (إذا) وُقوعَ الشَّرطِ في المُستقبل، وكانت تدلُّ على الجزمِ في وقوعِه، عبَّر بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا

تحقُّقُ الشَّرطِ مُـؤذِنٌ بتحقُّقِ الجزاءِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 448، 449، والواحدي، تفسير الوجيز، ص: 901.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 30.

قِيلَ﴾ للإشعارِ بأنَّ الشَّرطَ كالمُتحقِّق الوقوعِ نظرًا إلى لفظِ الماضي الموضوعِ للدَّلالةِ على الوقوعِ، بمعنى: أنَّ القولَ المذكورَ سيقعُ تحقيقًا؛ ليُؤذِنَ بتحقُّقِ الجزاءِ.

مُناسبةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ:

المُـؤمـنُ مُـقـبِـلٌ على آياتِ الله، والكافرُ مُتحفِّزٌ لـلإعـراضِ عنها قبلَ سماعِها

لـمّا كان الشَّرطُ يُؤتَى به للدَّلالة على أنَّ الجزاء مُتعلِّق بالشَّرط وواقعٌ في وقت وقوع الشَّرط وكان جزاءُ الشَّرط المحذوفُ بتقديرِ: (أعرَضوا)، أفادَ أنَّ إعراضَ الكافرين يكونُ في وقت وقوع الأمر بالتَّقوى فكأنَّ إعراضَهم مُبيَّتٌ عندَهم وهم عازمون عليه.

نكتةُ بناء الفعلِ للمفعولِ:

إعراضُ الكافرين عـن الـحـثِّ على تـركِ لـذّاتِـهـم، وليس لأمرٍ آخرَ

البناءُ للمفعول لظُهورِ أنَّ القائل هو الرَّسولُ ﷺ، فهو المُبلِّغ آياتِ القرآنِ[1]، وكان في العدولِ إلى صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ: ﴿قِيلَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم لا ينتفِعون بالقولِ من أيِّ قائلٍ كانَ، وبأيِّ طريقةٍ كان القولُ، سواءٌ كان بطريقِ الإنذار أو بغيرِه، فإعراضُهم لِما تتضمَّنُه الآياتُ من المعاني المُخالفة للذّاتِهم، وليس لأمرٍ آخرَ[2].

فائدةُ اللّامِ في شبهِ الجملةِ: ﴿لَهُمُ﴾:

يُقالُ في المَثَل (قد أعذَرَ مَن أنذَرَ)

اللّام في ﴿لَهُمُ﴾ للاختصاصِ، وتخصيصُهم بالتَّبليغ فيه إشعارٌ بأنَّهم قد حُذِّروا وذُكِّروا.

دلالةُ الضَّميرِ في قوله ﴿لَهُمُ﴾:

إنـذارُ المشركين إلـزامٌ لـهـم بالحجّةِ

الضَّميرُ في ﴿لَهُمُ﴾ عائدٌ على المُشركين من عُتاةِ قُريشٍ[3] المُكذِّبين بما نزَّلَ اللهُ منَ الآياتِ، المُصرّين على كُفرِهم وعِنادِهم.

نكتةُ الأمرِ بالتَّقوى:

عبَّر بلفظِ ﴿ٱتَّقُواْ﴾ للإشعارِ بالتَّحذيرِ والأمرِ بأن يكونَ اجتنابُهم

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 23/ 30.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 353، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 455.

لِما بين يدَيهم وما خلفَهم من العَثَراتِ المُهلِكة، مَشوبًا بالخوفِ العظيم، فكأنَّه قال: احذَروا واجتَنبوا وخافوا خوفًا عظيمًا[1]، ففيه الأمرُ بإعداد العُدَّة المُتضمِّنُ معنى النَّهي عن الاغترارِ بالدُّنيا وفعلِ المُنكرات.

التَّقوى تُفيدُ وُجوبَ الاجتنابِ، مع الخشيةِ من مغبَّةِ الارتكاب

دلالةُ ﴿مَا﴾ في السّياقِ المُحكَم:

تفيدُ ﴿مَا﴾ الموصولةُ في الموضِعَين من قولِه: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ العمومَ؛ ليشمل اللَّفظُ كلَّ ما بين أيديكم، وكلَّ ما خلفَكم، وهو المُناسبُ لمعنى الإحاطةِ في هذا التَّركيب بحسبِ ما سيأتي.

تكرارُ الاسمِ الموصولِ العامِّ يُفيدُ معنى الإحاطةِ

بلاغةُ الجملةِ بين الكنايةِ والاستعارةِ والمجاز:

يحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ كنايةً عن الماضي من وقائعِ الأمم التي خلَتْ، بمعنى: اتَّقوا أن تفعلوا مثلَ ما فعلَتِ الأممُ الماضيةُ منَ الإشراكِ والتَّكذيب، وأن يكون قولُه: ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ كنايةً عن المُستقبلِ منَ العذابِ المُعَدِّ في الآخرةِ لَمن كفَرَ وكذَّبَ، بمعنى: اتَّقوا أسبابَ العذاب في الآخرةِ، أو يكونُ التَّركيبُ كنايةً عمّا تقدَّمَ منَ الذُّنوب وما تأخَّر ممّا أنتم تعملونَ من بعدُ، بمعنى: اتَّقوا وبالَ ما تقدَّم منَ الذُّنوب وما تأخَّر، فيُفيدُ معنى: اتَّقوا أيَّ عملٍ فيه ذنب.

التَّحذيرُ ممّا وقع في الماضي لئلّا يُفعَلَ، وممّا سيقعُ بأن يُجتنَبَ

ويحتملُ العكسَ، بأن يكونَ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ كنايةً عن المُستقبلِ، و﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ كنايةً عن الماضي[2]، وهذا الاختلافُ لاختلافِ تصوُّرِ ما اعتُبِرَ به الخلفُ والقُدّامُ بما يسوقُه الزَّمنُ، ولهذا يُقالُ: (خلَّفتُ كذا) لِما قضيتَه، و(خلفي كذا) لِما لم تفعَلْه بعدُ[3].

أو يُقالُ: هذا التَّركيبُ فيه استعارة تمثيليَّة للزَّمان الماضي والمستقبل[4]، والغرضُ منَ الاستعارة تقريبُ ما مضى وما يكون في المُستقبل، فإن نُظِرَ إلى تمثيلِ المُضافِ إليه بسائرٍ إلى مكانٍ، فالذي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 136.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 19، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269.
(3) الراغب، تفسير الراغب الأصبهاني: 1/ 524.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 152.

بين يدَيه هو ما سيردُ هو عليه، ليُفيدَ المُستقبلَ، والذي خلْفَه هو ما خلَّفَه خلفَه في سَيرِه، فيكونُ المُرادُ بالخلفِ الماضيَ، وإن نُظِرَ إلى تمثيلِ المضافِ بسائرٍ، فهو إذا كان بين يدَي المُضافِ إليه فقد سبقَه في السَّير، فهو سابقٌ له، فيكونُ تركيبُ (ما بينَ يدَيه) استعارةً تمثيليَّةً للماضي، وإذا كان خلفَ المُضافِ إليه فقد تأخَّر عنه، فهو واردٌ بعدَه، فيكون تركيبُ (ما بينَ يدَيه) استعارةً تمثيليَّةً للمُستقبل[1]، وسواءٌ أكان التَّركيبُ على الكناية أم على الاستعارةِ فإنَّ المُرادَ التَّحذيرُ ممّا وقع في الماضي منَ الأمور السَّيِّئة لئلّا يُفعَلَ، وممّا يقعُ في المستقبل بأن يُجتنَبَ ما يُؤدّي إلى العذابِ والعقابِ.

ويحتملُ أن يكون التَّركيبُ على سبيل المجاز بذكرِ الجزء وإرادةِ الكلِّ، فيكونُ المُرادُ الإحاطةَ، وليس خُصوصَ الزَّمانِ الماضي والمُستقبلِ؛ أي: اتَّقوا كلَّ ما يُحيطُ بكم منَ الآفاتِ ونوازلِ السَّماءِ ونوائبِ الأرضِ وجميعِ المكارِهِ[2].

دلالةُ التَّرجّي في السّياقِ المُحكَمِ:

التَّقوى ممّا يُتَّقى سببٌ لرجاءِ الرَّحمة وغايةٌ لها

ورَدَ حرفُ التَّرجّي (لعلَّ) في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لمعنى التَّرجيةِ للمُخاطَبين، أي: المأمورينَ بالتَّقوى؛ أي: سترجونَ الرَّحمة، أو ستكونون على رجاءٍ منَ الرَّحمة، ولمّا علَّق رجاءَ الرَّحمة على الأمر بالتَّقوى كان الرَّجاءُ غايةً لها، والمعنى: اتَّقوا رجاءَ تُرحَموا، أو كي تُرحَموا، ويحتملُ أيضًا أن تكونَ جملةُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حالًا من واوِ ﴿ٱتَّقُواْ﴾، والمعنى: اتَّقوا راجينَ أن تُرحموا فتَنجوا منَ العذاب والهلاك؛ لِما عرفتُم أنَّ مناطَ النَّجاةِ ليس إلا رحمةَ الله تعالى[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 30.

(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 61، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 153.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 170، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 427.

لـمّا جُعِلَ ترجّي الرَّحمةِ غايةً للتَّقوى وعُلِّق بها، وكان التَّقديرُ: اتَّقوا ما بين أيديكم وما خلفَكم لِتكونوا راجينَ رحمةَ اللّه، أو من أجلِ نيلِ رحمة اللّه، كان في العدولِ عمّا يدُلُّ على المفعولِ لأجلِه والإتيانِ بكلمةِ التَّرجّي (لعلَّ) إيماءٌ إلى أنَّهم بعد الاتِّقاء لا يُجزَمُ عليهم بأن يكونوا مرحومينَ[1]، فليس لهم إلّا الرَّجاءُ.

العبدُ ينبغي أن يكون على رجاءِ الرَّحمة ولا يجزمَ بنَيلِها

و أيضًا لـمّا كان الأمرُ بالتَّقوى يشملُ الفردَ المُطلقَ بمعنى غايةِ التَّقوى وكمالِها، دلَّ على أنَّ العبدَ وإن اتَّقى غايةَ التَّقوى ينبغي أن يكون على رجاءِ الرَّحمةِ، ولا يجزِمَ بنيلِها[2].

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ في الآيةِ لبيان اعتيادِهم على الإعراضِ عن الأمر بالتَّقوى وعن آيات الإنذارِ، كأنَّه قيلَ: وإذا قيل لهم اتَّقوا العذابَ أعرَضوا[3]، فدلَّ على جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ قولُه في الآيةِ التي تليها: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، وحذفُه أبلَغُ من ذكرِه؛ لتذهبَ فيه النَّفس كلَّ مذهبٍ في تصوُّرِ كمالِ الإعراضِ وشدَّتِه وأنواعِه، وفي حذفِ الجزاء أيضًا إشارةٌ إلى عدمِ اهتمامِهم بالجوابِ، فهم لا يتَّقون ولا يُجيبون ولا يمتثلون ولا يُعنَونَ بالقائلِ ولا بالمقولِ، وفيه إشعارٌ كذلك بالقطعِ بعدمِ انتفاعِهم بالآياتِ، سواءٌ قيلَ لهم أو لم يُقَلْ؛ لأنَّهم قد اعتادوا على الإعراضِ عنها.

حُـذِفَ جـوابُ الشَّرطِ لتتصوَّرَ النَّفسُ الإعراضَ وشدَّتَه وأنواعَه

ويُفيدُ حذفُ جوابِ الشَّرطِ أيضًا أنَّهم أبلَغُ ما يكونون في الإعراضِ حين المُخاطَبة، ففيه تقبيحٌ لهم ببيانِ حالِهم عند تذكيرِهم وتحذيرِهم.

(1) ابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 153.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 153.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 526، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 170.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»